



(١)

في منتصف القرن الخامس الهجري ظهرت في الغرب الإسلامي دولة المرابطين ، وهي دولة إسلامية كبرى لها شأن كبير في تاريخنا ، ولها باع طويل في حفظ الكيان الإسلامي في الأندلس ، ووحدت هذا الغرب تحت رايتها .

أسس هذه الدولة الشيخ عبد الله بن ياسين مع تلميذه وصاحبه يحيى بن إبراهيم الجداي أمير قبيلة جدالة الصنهاجية ، كان ذلك نتيجة تخطيط محكم قام به علماء الإسلام المغاربة ، بدءاً من الشيخ أبي عمران الفاسي الذي بدأ دعوته في مدينة (فاس) قائماً بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذه الفريضة هي من أصول الإسلام في السياسة الشرعية ، لأن معناها الإصلاح من جميع جوانبه . انزعج حاكم المدينة من دعوة الشيخ وطريقته ، فخرج أبو عمران من (فاس) واتجه شرقاً واستقر في مدينة القيروان ، وهي مدينة ليست غريبة على أبي عمران فقد تلمنذ فيها على شيخه أبي الحسن القابسي ، ولعل هناك سر آخر في اختيار هذه المدينة، فالراحلون إلى المشرق للحج أو لطلب العلم يمرون بهذه المدينة ، وهذا ييسر لقاء الشيخ بالعلماء وطلبة العلم والتدارس في شأن المسلمين خاصة وأن حال المسلمين في الأندلس والمغرب وصل إلى درجة كبيرة في الضعف والتفرق . فالأندلس تحولت إلى دول الطوائف وبعضها يستعين بأعداء الإسلام على إخوانه ليكسب البقاء أو ليتوسع أرضاً على هوان وذل.

كان الشيخ يترقب الحوادث ويسبر غور الدعاة الذين يرسلهم لتعليم الناس ، ويفكر طويلاً بأمر الإسلام في هذا الجزء من العالم الإسلامي ، ولا شك أنه باحث طلابه وإخوانه حول السبل الكفيلة للخروج من هذه النوازل التي زللت كيان المسلمين . جاءت الفرصة التي قررها الله سبحانه وتعالى وذل ذلك حين زاره في رحلة العودة من الحج الأمير يحيى بن إبراهيم ، وسمع من الشيخ وأعجب به . ودار الحوار حول أحوال البلاد وقبائل صنهاجة الصحراوية ، وسأله الشيخ عن العدد فأخبره الأمير

عن سعة بلاده وما فيها من الخلق . ورأى الشيخ في هذا الأمير الطيبة والطبيعة التي لم يفسدها الترف ولم يبطرها القوة والسلطان وشكا الأمير إلى الشيخ حالة قومه وبلاده وأنهم بحاجة إلى فقيه يعلمهم أمور دينهم ويجمع كلمتهم ، وطلب من الشيخ أن يرسل معه أحد تلامذته . استجاب أبو عمران لطلب الأمير وكتب كتاباً إلى أحد تلامذته الفقهاء العاملين وهو الشيخ وجاج بن زلو اللطفي) ، الذي استقر في مدينة (نفيس) وأنشأ فيها مدرسة لطلب العلم . وكانت لفتة ذكية من الفقيه وجاج حين اختار لهذه المهمة شاباً أمعياً من تلامذته وهو عبد الله بن ياسين الجزولي ، الذي قام بالمهمة خير قيام وتوجه إلى منازل قبيلة جدالة ، وكان لها الرئاسة على القبائل الصنهاجية الأخرى : لمتونة ، سوفة ، جزولة ، لمطة ، كانت طريقة الشيخ ابن ياسين أن يعلمهم أمور دينهم ولكن لم يكتف بذلك بل أراد أن يهذب من طباعهم ويخرجهم من بدائيتهم ، وكان حاسماً معهم في أمر الدين لا يداهنه في ذلك ، فلم يرضوا طريقته وشدته في الحق فخرج من بلادهم وعاد إلى شيخه وجاج يطلب النصيحة غضب الشيخ وجاج من تصرف هذه القبيلة وطلب من الأمير يحيى أن يعاتب قومه على فعلتهم ، ندمت القبيلة على تصرفها وطلب من الشيخ العودة ولكنه رفض وذهب إلى جزيرة قريبة من الساحل في منطقة (السوس) في أقصى جنوب المغرب (ربما تكون قريبة من مصب وادي السنغال) وكان ذلك أيضاً باشارة من صديقه الأمير يحيى . وفي هذه الجزيرة أسس الشيخ رباطاً وسمى أتباعه المرابطين ، وعندما رأى وفرة الرجال الذين وفدو إليه لطلب العلم خرج بهم من الجزيرة مجاهداً فاتحاً القرى والمدن التي عشش فيها الجهل وتحكم فيها الزعماء الظالمون وبعد وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم ، كان الساعد الأيمن للشيخ ابن ياسين وأقرب الناس له الأمير يحيى بن عمر المتونى وكانت قبيلته (لمتونة) من المؤسسين لدولة المرابطين .

وكان العلماء والصلحاء من الناس ينتظرون مثل هذه اللحظات ، ففي عام 447هـ اجتمع فقهاء سلجماسة وفقهاء درعة وصلحاؤها وكتبوا إلى عبد الله بن ياسين والأمير يحيى يطلبون الوصول إلى بلادهم ليطهروها من المنكرات ، استجاب ابن ياسين واستولى على درعة ثم سلجماسة وأصلاح أحوالها وأزال ما فيها من البدع وأسقط المغارم المفروضة على الناس وهكذا استطاع الشيخ أن يقود المرابطين لتوحيد هذا الإقليم (الغرب الإسلامي) تحت راية الشريعة، ومن أعظم أعماله محاربته للفئة المنحرفة عن الإسلام (البرغواطيين) في منطقة (تامسنا) وقد استشهد في المعركة التي خاضها معهم . كان ابن ياسين هو الرئيس الفعلي للمرابطين ، وهو صاحب الدعوة ، ولكنه لم يختر أن يرأس الدولة الجديدة بل جعل رئاستها لصاحبه وشريكه في الدعوة الأمير يحيى بن عمر وبعد وفاة يحيى تولى الأمر أخيه أبو بكر بن عمر ولم يكن أقل من أخيه يحيى حرصاً على الدعوة وامتثالاً لأوامر الشريعة .

اتسعت حركة المرابطين اتساعاً كبيراً ، وينذهب أبو بكر بن عمر للدعوة في الجنوب، في مناطق السودان الغربي (ما يسمى اليوم السنغال وما جاورها) ويتترك قيادة الدولة لابن عمه يوسف بن تاشفين، لقد تخلى عن الحكم لأن الدعوة كانت همه الأول .

قام ابن تاشفين بأمور الدولة خير قيام واتخذ مدينة مراكش عاصمة له وغدت دولة المرابطين دولة واسعة قوية مرهوبة الجانب وعندما كانت الأندلس تتناثر قطعاً بأيدي ملوك الأسبان النصارى ، اجتمع علماء الأندلس ورأوا أن لا مناص من الاستعانة بالمرابطين . وطلبوا من ملوك الطوائف الكتابة لابن تاشفين في هذا الأمر . كان ابن تاشفين يعلم أحوال الأندلس وتفرق أهلها فاستجاب لطلب علمائها وذعماها، واعتبر ذلك فرضاً دينياً، وعبر الأندلس بجيشه المجاهدة ، ووحد صفوف الأندلسيين، وكانت معركة الزلاقة المشهورة التي انتصر فيها المسلمين انتصاراً ساحقاً ، وتوقف الزحف الإسباني على المدن الإسلامية لعقود قادمة.

لم يكن لابن تاشفين مطعم في الأندلس ولا في الغنائم التي تركها العدو ، تركها لأهل الأندلس ورجع إلى عاصمته مراكش ،

ولكن أمراء الأندلس نكسوا وعادوا إلى طبيعتهم من التنازع والتفرق، ويضطر ابن تاشفين للعودة مرة ثانية إلى الأندلس ليقضي على الدولات المتهاشرة على الدنيا .

تربي ابن تاشفين في مدرسة عبد الله بن ياسين وهي مدرسة تربوية جهادية لا تستهويها المناصب، فالذى ناصر وأسس مع ابن ياسين ذهب إلى الجنوب والغرب الأفريقي ليدعوا أهلها إلى الإسلام وترك الحكم لابن عمه . تأسست دولة المرابطين على الخير والإخلاص وكان للعلماء فيها المكانة العالية .

ولذلك تفهم هذه الدولة من المستشرقين وبعض تلامذتهم بأنها دولة عسكرية وليس حضارية ، أهل الحكم فيها جفاة يحاربون الاتجاهات الفلسفية ، فالمهم عند هؤلاء هو انتشار الفلسفة ، وأهل الانصاف يرون أن هذه من مزايا المرابطين لأنهم يهتمون بالعلم والعمل وليس بالجدل الكلامي ، يهتمون بالفقه وتطبيق السنة ، وهي دولة دعوية أرسلت الدعاة إلى ممالك السودان فأسلم بعض ملوكهم ، وفي عهدهم أصبحت العاصمة مراكش مليئة بالعلماء الذين وفدو إليها من كل حدب وصوب بسبب تشجيع المرابطين للحركة العلمية ، وفي تاريخ المسلمين ، كان للعلماء دور كبير ، فإذا ما أنيضعوا الأمر في نصابه ويعيدوا للأمة حيويتها ونضارتها وإنما أن يتركوا مهمتهم التي ندبوا إليها فيعم الجهل والنسيان . ومع الأسف لم تطل مدة بقاء هذه الدولة فقد حاربها وبقوة الذي أدعى المهدوية محمد بن تومرت وأجلب عليها قبيلته المصامدة وقضى على دولة المرابطين في فترة كانت الأمة الإسلامية بحاجة إلى التوحد وتكريس الجهود لامتداد الإسلام والوقوف في وجه الزحف الأوروبي الآتي من الشمال .

1 - وهو قرن الإحياء السنوي ، ففي المشرق أنقذ السلاجقة الخلافة العباسية من تسلط البوهيميين الشيعة، وفي الغرب الإسلامي قامت دولة المرابطين .

المصادر: